

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي
تاريخ العصر العباسي المتأخر
المرحلة الرابعة

عنوان المحاضرة: الخوارزميون ودورهم في
القضاء على الإمارة القراخانية سنة
607هـ/1210م

بعد أن فرض الخطا سيطرتهم على تركستان وبلاد ما وراء النهر سنة 536هـ/1141 ، واجهوا عدة تحديات سياسية وعسكرية هددت كيانهم السياسي في هذه البلاد .

ففي سنة 604هـ/1207م توجه خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش الى بلاد ما وراء النهر للاطاحة بالخطا بعد ما نشروا في هذه البلاد الظلم والفساد والطغيان ، وذلك استجابة لطلب المساعدة التي بعث بطلبها اليه الامير القراخاني نصره الدين قلج ارسلان خاقان عثمان بن قلج طمغاج خان ابراهيم الملقب بلقب خان خانات - أي سلطان السلاطين .

وقد تضمنت رسالته ما يأتي : (ان الله عز وجل قد اوجب عليك بما اعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود ان تستنقذ المسلمين وبلادهم من ايدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الاموال والابشار ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل اليك ما تحمله اليهم ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة) فأرسل اليه خوارزمشاه محمد رسالة يقول له فيها:(اخاف انكم لا توفون لي) .

وكدليل على صدق نوايا الامير القراخاني بعث اليه بوجوه اهل بخارى وسمرقند مؤكدين على صدق ووفاء الامير القراخاني بوعدده له ، فأمن خوارزمشاه محمد لنوايا الامير القراخاني وجمع عساكره عابراً نهر جيحون والتقى بالامير القراخاني في مدينة سمرقند، وقد وصلت اخبار تحشداتهم الى الخطا فحشدوا عساكرهم والتقى الطرفان في معارك ضارية.

وقد وقع خوارزمشاه محمد اسيراً بيد الخطا في احد هذه المعارك الا انه تمكن من النجاة بمساعدة احد الأمراء المدعو ابن شهاب الدين مسعود الذي كان معه في الأسر فعاد الى خوارزم واستبشر اهلهما بقدمه

وتجددت الحروب بين القراخانيين والخطا ، في سنة 606هـ/1209م واجتمع خوارزمشاه محمد مع الامير القراخاني سلطان السلاطين عثمان لملاقاة جيش الخطا عسكرياً ، وجرت حروب لم يكن لها مثل في الشدة ، وتمكن جيش خوارزمشاه محمد والامير القراخاني فيها من الحاق الهزيمة بالخطا وقتل اعداداً كبيرة منهم ووقع آخرون في الأسر واسرّ قائدهم طانيكو وأحضر الى خوارزمشاه فأحسن اليه واکرمه ، وتوجه خوارزمشاه محمد الى بلاد ما وراء النهر وفرض سيطرته عليها وعلى جميع مدنها حتى بلغ مدينة اوزكند واقام نوابه فيها وعاد هو الى مدينة خوارزم ، وعقدت مصاهرة سياسية بين الطرفين اذ تزوج الامير القراخاني من احدى بنات خوارزمشاه محمد ، ووفى الامير القراخاني بجميع وعوده لخوارزمشاه محمد.

الا ان الامير القراخاني سرعان ما شعر بالندم لاستنجاهه بخوارزمشاه محمد وطرد الخطا ، وذلك بسبب سوء سيرة المقاتلين الخوارزميين في سمرقند مع اهلهما ، فبعث رسالة الى ملك الخطا يدعوه للحضور الى مدينة سمرقند وتسليمها له وليدخل في طاعته من جديد ، وامر بقتل الخوارزميين الموجودين في مدينة سمرقند واراد قتل زوجته وهي ابنة خوارزمشاه محمد الا انها طلبت منه ان يعفو عنها ويتركها وشأنها فأستجاب لها وتركها.

ووصلت اخبار كل ذلك الى خوارزمشاه محمد فأمر بقتل كل من في خوارزم من الغرباء ولاسيما من اهل سمرقند ، الا ان والدته منعته من ذلك فأستجاب لطلبها، ثم أمر بتجهيز الجيش وسار نحو بلاد ما وراء النهر متوجهاً نحو مدينة سمرقند. وبعث رسالة الى الامير القراخاني قائلاً له فيها : (قد فعلت ما لم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل ولا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت . فقال : لا اخرج وافعل ما بدا لك) .

فأصدر خوارزمشاه محمد أوامره لجيشه باقتحام مدينة سمرقند واقامة السلالم على سورها ، وتمكن من فرض سيطرته عليها واذن لعسكره بنهبها وقتل من يجدونه في سمرقند واستمر النهب فيها لمدة ثلاثة ايام ، وتوجه بعدها نحو القلعة فطلب الامير القراخاني الامان من خوارزمشاه محمد الا انه رفض ذلك ، وتمكن جيشه من فرض سيطرته على قلعة المدينة واسر الامير القراخاني الذي قتل صبراً تنفيذاً لأوامر خوارزمشاه محمد وقتل معه عدد من اقاربه ، وبذلك فرض خوارزمشاه محمد سيطرته على جميع املاك القراخانيين منهيماً بذلك السلطة الفعلية لأمارتهم سنة 607هـ/1210م وذكر سنة 609هـ/1212م - وذكر غير ذلك - ، وبذلك خضعت تركستان وبلاد ما وراء النهر لسلطة الامارة الخوارزمية .

أن اختلاف المصادر التاريخية في تحديد السنة التي أنتهت فيها الإمارة القراخانية بمقتل آخر أمرائها وهو الامير عثمان يعود الى الغموض الذي يكتنف تاريخ هذه الإمارة .
الا أن بوزورث ذكر أن مقتل الأمير القراخاني عثمان ونهاية الإمارة القراخانية كان في سنة 607هـ/1210م.

وأرجح هذه الرواية رغم انفراد بوزورث بذكرها ، وخير دليل على ذلك أن بعض المصادر التاريخية ذكرت أن الأمير القراخاني عثمان وبعد تحالفه مع خوارزمشاه محمد وانتصارهما على الخطا سنة 606هـ/1209م ، أقام الأمير عثمان القراخاني سنة كاملة في خوارزم بعد زواجه من احدى بنات خوارزمشاه محمد وبعدها عاد معها الى سمرقند ، أي أنه امضى طوال سنة 606هـ/1209م وربما عدة أشهر من سنة 607هـ/1210م في خوارزم ومن ثم عاد مع زوجته في هذه السنة الى سمر قند وبعدها أعلن تمرده على خوارزمشاه محمد واستنجد بالخطا ضده .

واضاف بوزورث أن عدداً من الامراء القراخانيين بقوا يحكمون في مدينة فرغانة بعد نهاية السلطة الفعلية للأمارة القراخانية في معظم مدن تركستان وبلاد ماوراء النهر سنة 607هـ/1210م ، وأن فرعاً مستقلاً منهم قد أسس مركزاً في مدينة فرغانة بعد أن فرض الخطا سيطرتهم على بلاد ما وراء النهر سنة 536هـ/1141م ، وتمكن أحد الأمراء القراخانيين المدعو أرسلان الذي بقي يحكم هذا الفرع من الامارة القراخانية في فرغانة من الاطاحة بسلطة الخطا واعترف بسلطة زعيم المغول جنكيزخان ، والظاهر أن هذا الفرع أستمر بوصف اعضائه حكاماً على فرغانة تحت إمرة وسلطة المغول لسنواتٍ عدة.

أن افراد بوزورث بذكر هذه الرواية تثير الشك حول صحتها ، اذ لم أعثر على رواية مماثلة لها في المصادر التاريخية الأخرى .

ومهما يكن الأمر فأننا نعدُّ مقتل الأمير القراخاني عثمان وعلى يد خوارزمشاه محمد سنة 607هـ/1210م هي النهاية الحقيقية والفعلية لسلطة الأمارة القراخانية في تركستان وبلاد ما وراء النهر .